

دراسة نقدية للعمارة الدينية بالمغرب الأوسط "من خلال كتاب المسالك للبكري" A critical study of religious architecture in the Maghreb region through the book "Al Masalik" by Al Bakri

د/ الوردى طرطاق

Louardi TERTAG

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية – جامعة باتنة 1

مخبر دراسات في التاريخ والثقافة والمجتمع

louardi.tertag@univ-batna.dz

تاريخ الإرسال: 2023/05/11 تاريخ القبول: 2024/01/31

الملخص:

لعبت كتب الرحلة والجغرافية دورا كبيرا وبالغ الأهمية في تاريخ المغرب الأوسط في مختلف مجالاته؛ السياسية والاقتصادية والاجتماعية ولم تنس الجانب الحضاري والثقافي لها، وذلك منذ القرون الهجرية الأولى. ومن أهم الكتب، كتاب المسالك لأبو عبيد الله البكري، الذي عد هو الآخر مصدرا مهما لتاريخ المغرب الأوسط في القرن الخامس الهجري، فإنه لم يغفل جانب من الوصف للعمارة الدينية، فكلما تطرق إلى مدينة ما فلا يفوتها إلا وقد وصف عمرانها الديني. فكيف كان وصف البكري للعمارة الدينية بالمغرب الأوسط؟
الكلمات المفتاحية: البكري؛ المغرب الأوسط؛ الرحالة؛ الجغرافية؛ العمارة الدينية.

Abstract:

Les livres du voyage et de la géographie ont joué un rôle très important dans l'histoire du maghreb dans divers domaines. Politiques. Économiques et sociaux. et n'ont pas oublié son aspect culturel depuis les premiers siècles du hijri.

L'un des ouvrages les plus importants, le livre Abou obei dallah elbakri, qui est l'une des sources les plus importantes de l'histoire du moyen Maghreb au ve siècle, où il n'a pas oublié une partie de la description de l'architecture religieuse, chaque fois qu'il aborde une ville, ne manque pas, il a seulement décrit son architecture religieuse. Comment était la description d'elbakri de L'architecture religieuse au moyen Maghreb?

Key words: Elbakri; moyen-maghreb; géographie et randonneur ; architecture religieuse.

مقدمة:

كوّن المسلمون حضارة خاصة بهم التي هي مجموع إنجازات وإبداعات الإنسان، وتعتبر العمارة الإسلامية نتاجا جليلا وثمينا للدين الإسلامي حيث تأخذ الطابع الإسلامي الذي يميزها عن غيرها. وتم بناء المدن في كل أرض نشر بها الإسلام وصولا إلى المغرب الأوسط الذي أخذ نصيبه هو الآخر من هذا العمران.

وتكمن أهمية الدراسة في إبراز القيمة الحضارية والتاريخية التي يتميز بها والتي جعلته محط اهتمام العديد من الرحالة والجغرافيين منذ القرون الهجرية الأولى، ومن أشهر هؤلاء الجغرافيين الذين ذاع صيتهم في القرن الخامس الهجري نذكر أبا عبيد الله البكري (405 هـ/1014م) في مؤلفه الكبير "المسالك والممالك".

حيث استرسل الكلام فيه عن العمارة الإسلامية في المغرب الأوسط. ومنه نستنتج الدور الذي لعبته في تكوين حضارة وثقافة المنطقة، ولعل ما يهم أكثر هو رصيد البكري حول العمارة الدينية خلال وصفه لبنائها على اختلاف أنواعها.

الهدف من الدراسة هو تحقيق لما جاء في كتاب البكري الذي استوطن الأندلس، جامعا للمادة العلمية بالاعتماد على مؤلفات الجغرافيين والمؤرخين السابقين، والتجار الذين زاروا تلك الأقاليم، دون أن ينتقل إليها، ولذا جاءت هذه الدراسة البحثية من أجل التحقيق فيما جاء في كتاب البكري من معلومات حول العمارة الدينية في المغرب الأوسط.

فما مدى تطابق المعلومات التي جاءت في كتاب المسالك للبكري مع المؤلفات التي سبقته وعاصرته والمؤلفات التي جاءت بعده؟

ومن هذا المنطلق سنناقش هذه الإشكالية من خلال هاته الورقة البحثية.

أولاً: التعريف بكتاب البكري

يعتبر كتاب البكري "المسالك والممالك" سنة (460هـ/1068م)، من أهم كتب الرحلة، وذلك لما احتواه من قيمة علمية بحيث اعتبر قمة الإنتاج الجغرافي الأندلسي، لم يقتصر فيه على ذكر أخبار الأندلس فحسب، بل وخصص جزءاً منه لبلاد المغرب الإسلامي حيث اعتبر مصدراً أساسياً للفترة التي عاشها، اكتسى الكتاب أهمية بالغة بفضل المصادر التي اعتمد عليها والمنهج المتبع فيه.

وقد ظهر في الأندلس في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي علم من أعلام الجغرافيين المسلمين هو عبد الله بن عبد العزيز البكري، صاحب كتاب "المسالك والممالك" غير أن هذا المؤلف لم يدون في هذا الكتاب الكبير نتائج أسفاره ورحلاته وإنما اعتمد على ما جمعه من الآثار العلمية التي خلفها من سبقوه¹.

فهو يحتوي على الكثير من المعلومات التاريخية وهو يعتبر أولى الجغرافيين في الأندلس، وللبكري العديد من المؤلفات والكتب منها كتاب المسالك والممالك الذي طبع جزء منه باسم "المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب"، فهو يعتبر مصدراً أساسياً للفترة التي عاشها خاصة في بداية الدولة المرابطية في المغرب، فالبكري لم يكتب كتابه هذا واصفاً لرحلة قام بها أو مشاهدات قام بها أو اطلع عليها فهو لم يزر المغرب أبداً بل اعتمد على المعلومات التي حصل عليها في الأندلس، فقد قسم البكري كتابه المغرب إلى ثلاثة أجزاء:

أ- وصفه للمنطقة الواقعة بين مصر وبرقة، وتتضمن وصفاً للوحدات المغربية.

ب- بلاد إفريقية وقد أشار إليها البكري كوحدة إفريقية طولها من برقة شرقاً إلى طنجة الخضراء غرباً واسم طنجة موريطانيا وعرضها من البحر إلى الرمال التي هي أولاً بلاد السودان وهي جبال ورمال العظيمة متصلة من الغرب إلى الشرق.

ج- بلاد السودان فنذكر منها مدنها المشهورة والمسافات بينها وما فيها من الغرائب وسير أهلها وقد بين البكري لنا أن الرمال هي الحد الفاصل بين بلاد الإسلام في إفريقية والمغرب وبين بلاد السودان ثم ذكر

مدينة زويلة وأنها أول حد بلاد السودان ووصف الصحراء المحيطة بها وفي غرب الإقليم ذكر مدينة نور وهي آخر بلاد السودان².

يُعد كتاب المسالك والممالك قمة أعمال البكري في مجال المؤلفات الجغرافية. وهو إن كان كتاب جغرافية، لكنه يحتوي أيضا على بعض المعلومات التاريخية. وقد نشر البارون ديستان الجزء الخاص بجغرافية الشمال الإفريقي. كما حقق الدكتور عبد الرحمن علي الحجي نصا آخر يتعلق بجغرافية الأندلس وأوروبا من هذا الكتاب، اعتمد البكري في كتابه هذا على مصادر مختلفة، منها القديمة مثل كتب بطليموس، ومنها إسلامية مثل كتب المسعودي وابن رستم، ومحمد بن يوسف الوراق، كما استفاد من بعض معاصريه من المؤرخين والجغرافيين، مثل ابن حيان وابن عبد البر³.

على الرغم من أن أبا عبيد البكري لم يغادر الأندلس، إلا أنه جمع بالاعتماد على مؤلفات الجغرافيين والمؤرخين الذين سبقوه، والتجار الذين سبقوه، والتجار الذين اجتمع بهم مادة علمية جغرافية وتاريخية ذات أهمية كبرى قد لا نجد كثيرا منها في مؤلفات الجغرافيين الآخرين⁴.

وفي أثناء حديث البكري ووصفه لمدن المغرب الأوسط، وصف كذلك عمراناه الديني فذكر وجود المساجد وبنائها، وذكر وجود بعض الكنائس في بعض المدن منه، كانت قبل انتشار الإسلام، وغيرها من الوصف المختلف، مع ذكره لبعض تفاصيلها الأخرى ومواقعها وهذا ما سنناقشه.

ثانيا المدن الساحلية

1- ذكر مدينة بونة: يقول البكري عنها: ".... ويطل على بونة جبل زغوغ وهو كثير الثلج والبرد، ومن العجائب أن فيه مسجدا لا ينزل عليه شيء من ذلك الثلج وإن عم الجبل كله"⁵.

أما بالنسبة لابن حوقل⁶ فقد وصف بونة في مختلف مجالاتها إلا مجالها الديني فإنه لم يذكر هذا الجبل ولا هذا المسجد الذي عليه كذلك المقدسي⁷ لم يتطرق له في ذكره لبونة. ربما يرجع ذلك إلى عدم وجود هذا المسجد من أساسه في تلك الفترة.

أما الإدريسي⁸ فإنه يذكر اسم الجبل الذي ذكره البكري زغوغ باسم يدوغ وأنه بجانب بونة لكنه لم يذكر وجود المسجد عليه.

أما صاحب الاستبصار فيتفق مع وصف البكري ويزيد عنه القليل من الوصف حيث ذكر أنه يطل على مدينة بونة جبل زغوغ وهو كثير الثلج والبرد، وذكر أن عليه مسجد لا ينزل عليه شيء من ذلك الثلج أو البرد حيث يبقى في وسطه كأنه شامة واعتبرها من العجائب⁹.

كذلك ياقوت الحموي¹⁰ هو الآخر يصف بونة ويذكر حتى الجبل الذي يطل عليها باسم زغوغ مثلما ذكره البكري، ولكنه لا يذكر المسجد الذي عليه ليأتي الحسن الوزان¹¹ لاحقا ويصفها دون ذكر لهذا الجبل أو المسجد.

أما مارمول كربخال فيذكر أن الرومان هم من بنوها شرقي المكان الذي توجد فيه اليوم بعيدا عنه بمسافة قليلة على نهر يدوغ. وأن دور المدينة متقنة البناء، وبها مسجد فخم وبجانبه مدرسة يتعلم فيها شرع محمد¹². إذن هو أطلق اسم يدوغ على نهر وليس على جبل وكذلك ذكر أن بالمدينة مسجد فخم، ولكننا لا نعلم إن كان هذا هو المسجد نفسه الذي تحدث عنه أبو عبيد الله البكري وأكد عليه صاحب الاستبصار أو لا.

2- مدينة تنس: فيقول عنها البكري: "... وبها مسجد جامع"¹³. وابن حوقل¹⁴ اتفق مع وصف البكري، ولم يذكر الإسطخري¹⁵ في وصفه لمدينة تنس أن لها مسجدا جامعاً.

أما صاحب الاستبصار¹⁶ والحموي¹⁷ فإنهما يرويان نفس رواية البكري ونقلها عنه ليأتي ابن سعيد بعدهما ويصف لنا مدينة تنس ولكنه لا يتطرق لذكر أن لها مسجدا جامعاً¹⁸، وكذلك من بعده الحسن الوزان¹⁹. ما نلاحظه أن الإسطخري هو من رحالة القرن الرابع الهجري لم يذكر أن بمدينة تنس مسجدا جامعاً ولا نعلم سبب ذلك ربما للإيجاز على عكس ابن حوقل الذي ذكره، أما في القرن السادس الهجري يذكر صاحب الاستبصار والحموي أن بها مسجدا جامعاً نقلنا عن البكري.

هذا يدل على أن البكري كان صادقاً في نقله للأوصاف. وهذا ما جعلهما ينقلان عنه روايته نفسها، أما من أتى بعدهم في القرن السابع الهجري إلى العاشر الهجري كذلك لم يتطرقوا إلى وجود مسجد جامع بالمدينة، وقد يعود ذلك إلى السبب نفسه الذي ذكرناه سابقاً.

3- مرسى الدجاج: يصفها البكري بقوله: "... ومدينة مرسى الدجاج، قد أحاط بها البحر من ثلاث نواح وقد ضرب بسور من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية، ومن هناك يدخل إليها أسواقها، ومسجد جامعها داخل ذلك السور وله باب واحد..."²⁰.

تطرق العديد من الرحالة إلى وصف مدينة مرسى الدجاج وذلك للأهمية البالغة التي حظيت بها في العصر الإسلامي وموقعها الاستراتيجي على غرار البكري، أما من اتفق مع رواية البكري عن وجود مسجد جامع داخل سورها وله باب واحد فقط هو ياقوت الحموي²¹ فقط. أما ابن حوقل²² وصاحب الاستبصار²³ وأبو الفداء²⁴ تحدثوا عن المدينة ولم يذكروا وجود مسجد جامع بها.

4- جزائر بني مزغنى: يصفها البكري بقوله: "... ولها أسواق و مسجد جامع، وكانت بمدينة بني مزغنة كنيسة عظيمة بقي منها جدار مدير من الشرق إلى الغرب، وهو اليوم قبلة الشريعة للعبيدين مفصص كثير النقوش والصور"²⁵.

لم يذكر ابن حوقل²⁶ والإسطخري²⁷ والمقدسي²⁸ أثناء وصفهم لجزائر بني مزغنة أنّ بها مسجد جامع أو حتى الكنيسة التي ذكر وجودها البكري.

إن ما ذكرناه سابقاً هم رحالة القرن الرابع، أي قبل البكري وسبقوه، لذلك لا يمكن أن نشكك في رواية البكري حينها، لأنه ربما لم يكن هناك بناء لهذا المسجد من أساسه.

أما بالنسبة لصاحب الاستبصار فيذكر أنه كانت بمدينة بني مزغناي كنيسة عظيمة وأنّ بنيانها عجيب، بقي منه جدار كثير النقوش والصور²⁹. إذن هو يذكر نفس رواية البكري عن وجود الكنيسة ولكن لا يذكر المسجد الجامع بها.

هو الآخر - ياقوت الحموي- يصف عمران المدينة نقلنا عن البكري ويذكر أنّ لها أسواقاً ومسجداً جامعاً³⁰، ولا يذكر الكنيسة التي ذكرها البكري رغم أنه نقل عنه.

ليأتي في القرون اللاحقة كل من أبي الفداء³¹ والعبدي³² والقلقشندي³³ وأخيراً الحسن الوزان³⁴، ولا يذكرون لا وجود مسجد جامع ولا كنيسة بالمدينة في وصفهم لها.

كما وجدت آثار إسلامية بالقرب من مسجد كنتشاوة، وجدها الفرنسيون عندما حولوا المسجد إلى كنيسة واضطروا إلى الحفر بالقرب من جدرانه واعتقد هؤلاء بأنّ المسجد شديد على أنقاض مسجد آخر، وربما يعود إلى عهد الإمارة العلوية أو عهد الدولة الزييرية، لأنّ بلكين أعاد بناء المدينة ولا يمكن أن يكون قد أعاد بناءها بدون بناء مساجد لها لأنّ الذين شيّدوا مدناً قبله أو بعده اهتموا في البداية ببناء المساجد كما فعل عقبة بن نافع في القيروان وعبد الرحمن بن رستم في تيهرت³⁵.

كما وجدت آثار لمسجد آخر عندما قام الفرنسيون ببناء المسرح الوطني ومخططه العمراني أكبر من مسجد المرابطين، ولعله هو المسجد الذي أشار إليه البكري عند تعرضه لمدينة الجزائر. قد تم التعرض لهذا المسجد في أحداث الجزائر خلال سنة 1365/1364 وقيل بأنه مقابل لإحدى عيون جزائر بني مزغنة³⁶.

5- مدينة وهران: يتحدث عنها البكري بقوله: "ومدينة وهران حصينة ذات مياه سائحة وأرجاء ماء وبساتين ولها مسجد جامع"³⁷.

بالنسبة للمصادر التي وصفت مدينة وهران من ابن حوقل³⁸ وصاحب الاستبصار³⁹، ثم أبي الفداء⁴⁰ العبدري⁴¹، فلم يذكروا قط وجود مسجد جامع بالمدينة مثلما ذكره البكري ولا نعلم سبب ذلك. أما الحسن الوزان الذي أتى في الفترة المتأخرة فذكر أن بها من بنايات والمؤسسات ما تتميز به كل مدينة متحضرة، من مساجد ومدارس⁴².

قد يرجع عدم ذكر المصادر الأولى لمساجد مدينة وهران حسب رأينا إلى تركيزهم جلهم على جوانبها الاقتصادية التجارية بدرجة الأولى، وبالتالي أهملوا هذا الجانب، وهناك من ذكرها بإيجاز بسيط جدا مثل العبدري، إذن لا نعلم إن كانت رواية البكري صحيحة أم لا.

أما ما أتى به الحسن الوزان وهو أن بها مساجد ومتحضرة فهناك احتمالين، الأول: أن قول البكري صحيح وتطور بها العمران بأنواعه، فمن غير المعقول أن تكون هناك مدينة إسلامية من دون مسجد، فقد كان هو أول شيء يبني باعتباره النواة الأولى لعمارة أي مدينة إسلامية ومنه تكون الانطلاقة، أما الثاني: فلربما تطور عمران المساجد بطريقة أفضل في عهد الوزان وهو ما لفت انتباهه لذكره عكس ما كان عليه في القرون الهجرية الأولى.

6- ذكر مدينة تلمسان وما والاها من المغرب: وصفها البكري بقوله: "... وهي مدينة مسورة في سفح جبل شجرة الجوز.... وبها بقية من النصارى إلى وقتنا هذا ولهم بها كنيسة معمورة.... وهذه المدينة تلمسان قاعدة المغرب الأوسط لها مساجد ومسجد جامع"⁴³.

ابن حوقل⁴⁴ يصف المدينة ولكن لا يذكر أن بها مساجد وكذلك هو الآخر صاحب الاستبصار⁴⁵ رغم أن هذا الأخير ينقل عن البكري في أغلب روايته وأيضاً الحموي⁴⁶ لا يذكر أن بها مساجد. ونجهل سبب ذلك دائماً.

وكذلك لم يذكر كل من الزهري⁴⁷ في وصفه لمدينة تلمسان وأبي الفداء⁴⁸ أيضاً أن بها مساجد أو مسجد جامع، أما العبدري وهو من رحالة القرن الثامن الهجري فيذكر أن بها جامعاً عجبياً مليحاً متسعاً⁴⁹، كذلك الحسن الوزان يذكر أنه توجد بتلمسان مساجد عديدة جميلة مصانة، لها أئمة وخطباء⁵⁰.

انتشرت المساجد عبر أحياء المدينة، منذ أن دخلها الفاتحون في النصف الثاني من القرن الأول الهجري، السابع الميلادي، ويبدو أن أقدم مسجد فيها هو المسجد الذي اعتنى به الأدارسة⁵¹.

المسجد الجامع بأكدير: يعود تاريخ تأسيسه، إلى ما قبل استيلاء الأدارسة على مدينة تلمسان بقيادة ادرس الأكبر سنة (174هـ - 790م) الذين أعادوا بناءه ورمموه أكثر من مرة، في عهد كل من إدريس الأول وابنه إدريس الثاني، وزينوه ووسعوه، وأضافوا له المنبر والمحراب، وكذلك قام السلطان يغمراسن بترميمه وبناء منذنته، ولا تزال بعض آثاره قائمة في مدينة تلمسان⁵².

وقد قيل عنها إن هارون الرشيد لما وصله خبر استيلاء إدريس الأول على المدينة وبنى بها أول مسجد للدولة الإدريسية، صرح بأنها: باب إفريقية ومن ولج الباب استولى على الدار"⁵³.

احتفظت لنا تلمسان القديمة (بومارية) بأطلال قليلة جدا، تعود إلى عهد الرومان، بقايا من سور كان يحيط بها وأحجار ملقاة هنا وهناك استعمل بعضها في تشييد الجزء الأسفل من الصومعة التي أمر ببنائها "يغمراسن بن زيان" العبد الوادي في القرن الثالث عشر والتي لا تزال قائمة تناطح السماء إلى يومنا هذا بجانب ما بقي من أثار المسجد الذي بناه المولى إدريس بن عبد الله، رحمه الله، في صفر سنة (174هـ)54. مسجد الأعظم بتاكرارت: شيد هذا المسجد يوسف بن تاشفين المرابطي، أثناء بنائه لمدينة تاكرارت سنة (473هـ-1080م)، وأعاد بناءه - فيما يبدو - ابنه علي بن يوسف سنة (530هـ-1135م)، وأدخل عليه المهندسون والمعماريون مسحة فنية أندلسية، حتى صار تحفة معمارية رائعة، ولا شك أنّ الذين أشرفوا على بنائه، قد انتقاهم علي بن يوسف من بلاد الأندلس، وتدل على إعادة بنائه في عهد هذا الأخير الكتابة الموجودة على المحراب⁵⁵: "بسم الله الرحمان الرحيم، وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم، هذا مما أمر بعمله الأمير الأجل... أيده الله وأعز نصره وأدام دولته، وكان إتمامه على يد الفقيه الأجل القاضي الأوصل أبي الحسن علي بن عبد الرحمان بن علي أدام الله عزهم، فتح في شهر جمادي الأخير عام ثلاثين وخمسة مائة"⁵⁶.

يعد الجامع الكبير تحفة معمارية لا مثيل لها بالمغرب قاطبة وتتمثل روعته في العناصر التالية:

- الرواق المركزي الذي يتألف من ثلاثة عناصر معمارية رفيعة الطراز: المحراب وقبته الأمامية المشيدان في العصر المرابطي وبتأثير أندلسي، وقبة الثريا التي أضافها يغمراسن بن زيان ...
- يحمل قوس المحراب المفصص، سبع عشرة حشوة بها زخارف نباتية وكتابات بالخط الكوفي ولم يأت العدد (17) عفويا: إنه يشير إلى عدد الركعات بالصلوات المفروضة، ومما يزيد في روعة الأداء أن أبدع الفنان في هذا الإطار وكتب "بسم الله" بالخط الكوفي على شكل ورقة.
- وأما القبة الأمامية فهي مخرمة وتعد آية في الإتقان، إن عرف البناء كيف ينتقل من مربع القاعدة إلى مئمن رفع من فوقه العناصر المهيكلية والمزخرفة في آن واحد للقبة.
- عند رفع يغمراسن بن زيان منذنة المسجد قرر إضافة قبة ثالثة بالرواق المركزي لقاعة الصلاة، تطلت منها ثريا ضخمة مصنوعة من الخشب والنحاس الأصفر عليها 360 شمعة⁵⁷.
- إذن البكري أشار إلى وجود مساجد بتلمسان ومسجد جامع ولا نعرف أي مسجد جامع يقصده هل المسجد الذي بناه الأدارسة أو هو المسجد الذي شيده المرابطون والرأي الأقرب هو المسجد المرابطي كونه زامن الدولة المرابطية، أما مسجد الأدارسة فربما يكون من بين المساجد التي ذكر وجودها بالمدينة، وما لاحظناه أنه كل المصادر والمراجع التي اطلعنا عليها التي تحدثت على مدينة تلمسان لم تذكر قط وجود الكنيسة التي ذكرها البكري.

أ- أسلن: يقول عنها البكري: "مدينة أسلن وهي شرقي أرشقول ... بها جامع"⁵⁸، أما ابن حوقل⁵⁹ فلا يذكر ذلك ربما لأنه لم يكن قد بني في فترته. كذلك صاحب الاستبصار⁶⁰ لا يذكر شيئا عن هذا الجامع في حديثه عن المدينة رغم أنه ينقل في الغالب على البكري كما ذكرنا سابقا وكذلك هو الأمر بالنسبة للحسن الوزان⁶¹ الذي يذكر اسم المدينة ويصفها بقصر أسلي ولا يذكر وجود جامع بها.

أما المراجع التي اطلعنا عليها الخاصة بتاريخ المنطقة فقد أهملت الحديث عنها تقريبا كليا وحتى إن ذكرت فهي لا تذكر شيئا من عمرانها الديني.

ب- فكان: يتحدث عنها البكري بقوله: "وعلى مرحلتين من أسلن مدينة فكان... وعلى أسفل مدينة فكان سور طوب وبها جامع"⁶².

أما صاحب الاستبصار⁶³ فلا يتفق مع رواية البكري بحيث يذكر المدينة ولكن لا يذكر شيئا عن إن كان بها جامع أم لا، وكذلك الحال بالنسبة للمراجع.

ج- ندرومة: يصفها البكري بقوله: "... ومدينة ندرومة هي طرف في جبل تاجرا... وساحلها وادي ماسين وهو نهر كثير الثمار، وله مرسى مأمون وعليه حصنان ورباط حسن مقصود يتبرك به، إذا سرق أحد فيه أو أوتى بفاحشة لم تتأخر عقوبته، قد تعارفوا ذلك من بركته وحسن صنع الله فيه، ومدينة ندرومه (لها سور ومساجد وجامع)"⁶⁴.

أما صاحب الاستبصار⁶⁵ فيصفها بنفس وصف البكري وأن بها رباطا يتبرك به ولكنه لا يذكر أن بها مساجد وجامعا مثلما ذكره البكري، وفي وصف الحسن الوزان⁶⁶ لها لا نجد فيه ذكرا لا لرباط⁶⁷ ولا لمساجد أو جامع بها.

نستنتج من خلال ما تطرقنا إليه في هذا المبحث حول العمران الديني لمدن المغرب الأوسط من خلال وصف البكري لها واعتمادا على مصادر آخر وكذا مراجع، أنّ البكري تحدث على أغلب هاته المدن وذكر وجود مساجد بها.

هذا يدل على انتشار الإسلام الواسع بالمنطقة والاهتمام بإنشاء المساجد في كل مدينة إسلامية، وكذلك ذكره لوجود ما وصفه بالمسجد الجامع خاصة بجزائر بني مزغنة وتلمسان كما ذكر وجود رباط بمدينة ندرومة، أما بالنسبة للمصادر الأخرى فهناك من أكدت نفس الوصف وأغلبها لم تذكر المساجد ووجودها ربما إهمالا منها للجانب الديني أو للإيجاز فقط.

ثالثا: المدن الداخلية

1- مدينة الغدير: يقول في ذكرها البكري: "... وبمدينة الغدير جامع"⁶⁸، وصاحب الاستبصار⁶⁹ كان له نفس وصف البكري على باقي عمران المدينة ولكنه لا يذكر أن بها جامعا ولا ندري سبب ذلك، أما بقية المصادر الأخرى لم تتطرق إلى ذكرها و من هنا لا نعلم إن كان بها فعلا جامعا أم لا.

2- ميلة: يتحدث عنها البكري بقوله: "... وبها جامع... ولمدينة ميلة باب شرقي يعرف بباب الروس (وعلى مقربة منه جامعها وهو ملاصق لدار الإمارة)"⁷⁰.

نفس الأمر كذلك لا يذكر كل من الحموي⁷¹ وصاحب الاستبصار⁷² ولا الحسن الوزان⁷³ لاحقا وجود جامع بمدينة ميلة وقد يعتبر هذا تقصيرا من هؤلاء لأن مدينة ميلة مشهورة بجامعها الذي بناه أبو المهاجر دينار حين وصوله إليها وفتحها، بناه سنة (59هـ)، فهو أعرق مساجد الجزائر على الإطلاق.

كما بقي مسجد القصبية الذي شيده أبو المهاجر على أنقاض القلعة القديمة ومن أحسن ما بقي منها من الحصينات القصبية⁷⁴.

فيما يتعلق بالأبواب فإن مدينة ميلة كغيرها من مدن المغرب الإسلامي في العصور الوسطى تحتوي على مجموعة من الأبواب منها باب شرقي يعرف بباب الرؤوس كان يحاذي دار الإمارات...، وهو غير بعيد عن المسجد الذي يبدوا أنه لم يكن بمركز المدينة مثل بقية المدن الإسلامية الأخرى حيث يكون المسجد عادة بمركز المدينة قريبا من الأسواق التجارية⁷⁵ وهذا ما يؤكد وصف البكري للمدينة.

3- تيهرت: يروي لنا البكري رواية مطولة حولها وهي كالآتي: "... وذكر محمد بن يوسف أن عبد الرحمان بن رستم كان خليفة لأبي الخطاب عبد الأعلى بن السماح بن عبيد بن حرملة أيام تغلبه على إفريقية فلما قتل محمد بن الأشعث الخزاعي أبا الخطاب، وذلك في صفر سنة أربع وأربعين ومائة، هرب عبد الرحمان بأهله وما خف من ماله وترك القيروان، فاجتمعت إليه الإباضية واتفقوا على تقديمه وبنيان مدينة

تجمعهم، فنزلوا موضع تيهرت اليوم وهو غيضة أشبه، ونزل عبد الرحمان منه موضعا مربعا لا شعري فيه وأدركتهم صلاة الجمعة فصلى بهم هناك، فلما انقضت الصلاة ثارت صيحة عظيمة على أسد ظهري في الشعري فأخذ حيا وأتى به إلى الموضع الذي صلوا فيه وقتل هناك، فقال عبد الرحمان بن رستم: هذا بلد لا يفرقه سفك دم ولا حرب أبدا، وابتدوا من تلك الساعة فبنوا في ذلك الموضع مسجدا وقطعوا خشبة من تلك الشعري، فهو كذلك إلى اليوم وهو مسجد جامعها وهو من أربعة بلاطات⁷⁶، هنا البكري يتحدث على المسجد الموجود في تيهرت القديمة التي بنيت أول مرة.

ويذكر كذلك ابن الصغير المالكي أثناء حديثه على عدل عبد الرحمان بن رستم انتشار المساجد بتيهرت أن هناك مسجدا للقرويين ورحبتهم، ومسجدا للبصريين، ومسجدا للكوفيين⁷⁷، كما يذكرها اليعقوبي⁷⁸ أيضا في وصفه ولكن لا يصف أن بها مسجدا أو جامعاً.

وكذلك نفس الشيء بالنسبة للإسطخري⁷⁹، أما ابن حوقل فيذكر أنهما مدينتان كبيرتان إحداهما قديمة والأخرى محدثة والقديمة عليها سورا وهي على جبل غير عال وبها الكثير من الناس وفيها جامعا والمحدثة مدينة أيضا فيها جامع كتاهرت القديمة وإمام وخطيب⁸⁰.

إذن ابن حوقل هنا يذكر وجود جامعين في تاهرت القديمة والحديثة ويذكر أن جامع الحديثه إمام وخطيب وهو ما لم يذكره لنا البكري.

أما المقدسي فيذكر أن بها جامعين على ثلثي البلد وأنهما قد بنيا بالحجارة والجيل قريبان من الأسواق⁸¹.

أما الحموي⁸² فهو ينقل نفس الرواية عن البكري، لكن صاحب الاستبصار⁸³ لا يذكر وجود مسجد بها أثناء وصفه لها وكذلك أبو الفداء⁸⁴.

أما تخطيط تاهرت فقد جرى على النحو الذي اتبع في بناء المدن الإسلامية الكبرى، بحيث تساعد على ذلك انصهار أفراد المجتمع وامتزاجهم وعدم التفرقة بين عناصرهم، فاخترت الإباضية المسجد الجامع من أربع بلاطات واستعانوا في بنائه بأخشاب الشعراء المنتشر في المنطقة⁸⁵.

إذن أغلب الروايات جاءت لتؤكد وصف البكري الذي مفاده وجود جامع بالمدينة وكذلك هو الأمر بالنسبة لمواصفاته.

4- تهودا: يقول البكري عنها: "... تهودا تعرف بمدينة السحر وهي مدينة أهلة... وبها جامع جليل ومساجد كثيرة"⁸⁶.

لا يذكر كل من ياقوت الحموي⁸⁷ وصاحب الاستبصار⁸⁸ أن بها جامع أو مساجد أثناء وصفهم للمدينة، أما باقي المصادر كما ذكرنا سابقا أشارت إليها فقط دون وصفها.

5- باديس: يصفها البكري بقوله: "... ومنها إلى مدينة باديس مرحلة... وبمدينة باديس حصنان فيهما جامع..."⁸⁹.

أما الحموي⁹⁰ فلا يذكر شيء عن هذا الجامع في حديثه عنها ونفس الشيء بالنسبة لصاحب الاستبصار⁹¹ وأبو الفداء⁹²، ولا نعلم سبب عدم ذكرهم، إذا كان تقصيرا وعدم الاهتمام بهذا الجانب أو أن الجامع زال وخرب في فتراتهم. هذا يبقي مجرد احتمال فقط.

خاتمة:

وأخيرا نستخلص أن:

- البكري قد اهتم اهتماما كبيرا بذكر العمران الديني للمدن الساحلية والداخلية للمغرب الأوسط من مساجد وأربطة وغيرها، بحيث لا يمر في وصفه لمدينة إلا وقد ذكر إن كان بها مسجدا أو جامعا أو مساجد كثيرة، وهذا ما لم نجده عند غيره من المصادر الأخرى أغلبها، ولا نعلم سبب عدم اهتمامهم بهذا الجانب كما ذكرنا سابقا.

- إن كل ما جاء في كتاب البكري حول العمارة الدينية هناك بعض المدن والأقاليم اختلف حولها مع بعض المؤرخين الذين سبقوه، أو الذين من بعده، حول وجودها من عدمه، وهذا راجع إلى عدم زيارته للمواقع التي وردت له عنها معلومات من التجار أو غيرهم، أما ناقصة أو أن المعلومة المنقولة للمؤرخ غير دقيقة أو خاطئة لسبب ما.

- وعليه يفتح الباب للباحثين من أجل التحقيق والتدقيق مع الزيارات الميدانية للمواقع من أجل إثبات ما جاء في كتابات الرحالة والجغرافيين سواء البكري أو غيره في مجال العمارة والعمران بصفة خاصة ومختلف الآثار عامة، ووضع خريطة أثرية في هذا المجال

قائمة المصادر والمراجع:

أولا المصادر

- ابن سعيد المغربي (ت 685هـ - 1286م)، كتاب الجغرافيا، تح: إسماعيل عربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1970م.

- أبو عبد الله الشريف الإدريسي (ت 710هـ - 1310م)، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، طبع بمطبع بريل، ليدن المحروسة.

- أبي العباس أحمد القلقشندي (821هـ - 1418م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المطبعة الأميرية، القاهرة، ج 5، 1915م.

- الحسن بن محمد الوزان (962هـ - 1554م)، وصف إفريقيا، تح: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط2، 1983م.

- عماد الدين إسماعيل أبي الفداء (732هـ - 1331م)، تقويم البلدان، دار صادر، بيروت.

- مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، نشر وتوزيع، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985م.

- محمد العبدري البنلنسي (ت 700هـ - 1300م)، الرحلة المغربية، تق: سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، ط1، 2007م.

- أبو عبيد الله البكري (487هـ - 1094م)، المسالك والممالك، تح: أندريان فانليون وأندري فيري، دار الغرب الإسلامي، 1992م.

- أبو القاسم ابن حوقل (ت 367هـ - 977م)، كتاب المسالك والممالك، طبع بمطبع بريل، ليدن المحروسة، دط، 1872م.

- مارمول كربخال (978هـ - 1600م)، إفريقيا، تح: محمد حجي وآخرون، دار المعرفة، الرباط، ج3، 1989م.

- محمد بن أحمد المقدسي (336هـ - 991م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط3، 1991م.

- ياقوت الحموي (626هـ - 1229م)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت.

ثانيا: المراجع

- أنور محمود زناتي، مصادر تاريخ المغرب والأندلس (المصادر، المراجع، الدوريات)، دار سحر للنشر، ط 1، 2008م.

- عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية)، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، ج1، 2002م.

- محمد الأمين بلغيث، الربط بالمغرب الإسلامي ودورها في عصر المرابطين والموحدين، رسالة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1987م.
- محمد بن عمرو الطمار، تلمسان عبر العصور - دورها في سياسة وحضارة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، د. ط، الجزائر، 1984م.
- محمد عيسى الحريري، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي (حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس)، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، ط 3، 1987م.
- مختار حساني، موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، دار الحكمة، الجزائر، ج3، 2007م.
- زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار الرائد العربي، لبنان، 1981م.
- نصر الدين براهامي، تلمسان الذاكرة، منشورات ثالثة، الجزائر، 2007م.

الهوامش:

- 1- زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار الرائد العربي، د. ط، لبنان، 1981م، ص45.
- 2- المرجع نفسه، ص ص11-12.
- 3- أنور محمود زناتي، مصادر تاريخ المغرب والأندلس (المصادر، المراجع، الدوريات)، دار سحر للنشر، ط 1، دمن، 2008 م، ص22.
- 4- المرجع نفسه، ص ص72-73.
- 5- أبو عبيد الله البكري (487هـ-1094م)، المسالك والممالك، تح: أندريان فانليون وأندري فيري، دار الغرب الإسلامي، 1992م، ص 717.
- 6- أبي القاسم ابن حوقل (ت 367هـ-977م)، كتاب المسالك والممالك، طبع بمطبع برييل، ليدن المحروسة، د. ط، 1872م، ص 51.
- 7- محمد بن أحمد المقدسي (336هـ-991م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط3، 1991م، ص 104.
- 8- أبو عبد الله الشريف الإدريسي (ت710هـ-1310م)، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، طبع بمطبع برييل، ليدن المحروسة، د. ط، 1823م، ص 117.
- 9- مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، نشر وتوزيع، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985م، ص 127.
- 10- ياقوت الحموي (626هـ-1229م)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ص 512.
- 11- الحسن بن محمد الوزان (962هـ-1554م)، وصف إفريقيا، تح: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط2، 1983م، ص 61.
- 12- مارمول كرخال (978هـ-1600م)، إفريقيا، تح: محمد حجي وآخرون، دار المعرفة، الرباط، ج3، 1989م، ص 7-8.
- 13- أبو عبيد الله البكري، المصدر السابق، ص 726.
- 14- أبو القاسم ابن حوقل، المصدر السابق، ص 89.
- 15- أبو القاسم الاسطخري، المصدر السابق، ص 19.
- 16- مؤلف مجهول، الاستبصار، المصدر السابق، ص 133.
- 17- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص 48.
- 18- ابن سعيد المغربي (ت 685هـ-1286م)، كتاب الجغرافيا، تح: إسماعيل عربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1970م، ص 142.
- 19- الحسن بن محمد الوزان، المصدر السابق، ص 35.
- 20- أبو عبيد الله البكري، المصدر السابق، ص 730.
- 21- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج 5، ص 106.
- 22- أبو القاسم ابن حوقل، صورة الأرض، المصدر السابق، ص 77.

- 23- مؤلف مجهول، الاستبصار، المصدر السابق، ص 131.
- 24- عماد الدين إسماعيل أبي الفداء (732هـ - 1331م)، تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، د.ط، 1850م، ص 147.
- 25- أبو عبيد الله البكري، المصدر السابق، ص 732.
- 26- أبي القاسم ابن حوقل، المصدر السابق، ص 77، 78.
- 27- أبو القاسم الاسطخري، المصدر السابق، ص 19.
- 28- محمد بن أحمد المقدسي، المصدر السابق، ص 104.
- 29- مؤلف مجهول، الاستبصار، المصدر السابق، ص 132.
- 30- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج 2، ص 132.
- 31- عماد الدين إسماعيل أبي الفداء، المصدر السابق، ص 147.
- 32- محمد العبدري (ت 700هـ - 1300م)، الرحلة المغربية، تق: سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، ط 1، 2007م، ص 49.
- 33- أبي العباس أحمد القلقشندي (821هـ - 1418م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المطبعة الأميرية، القاهرة، د.ط، ج 5، 1915م، ص 109.
- 34- الحسن بن محمد الوزان، المصدر السابق، ص 37.
- 35- مختار حسناني، المرجع السابق، ج 1، ص 12.
- 36- المرجع نفسه، ص 12-13.
- 37- أبو عبيد الله البكري، المصدر السابق، ص 738.
- 38- أبو القاسم ابن حوقل، المصدر السابق، ص 52-53.
- 39- مؤلف مجهول، الاستبصار، المصدر السابق، ص 133-134.
- 40- عماد الدين إسماعيل أبي الفداء، المصدر السابق، ص 124.
- 41- محمد العبدري، المصدر السابق، ص 211.
- 42- الحسن بن محمد الوزان، المصدر السابق، ص 30.
- 43- أبو عبيد الله البكري، المصدر السابق، ص 745-746.
- 44- أبي القاسم ابن حوقل، المصدر السابق، ص 63.
- 45- مؤلف مجهول، الاستبصار، المصدر السابق، ص 176-177.
- 46- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج 2، ص 44.
- 47- أبو بكر الزهري، المصدر السابق، ص 113، 114.
- 48- عماد الدين إسماعيل أبي الفداء، المصدر السابق، ص 123.
- 49- محمد العبدري، المصدر السابق، ص 27.
- 50- الحسن بن محمد الوزان، المصدر السابق، ص 19.
- 51- عيد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية)، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، ج 1، 2002م، ص 145.
- 52- المرجع نفسه، ص 145-146.
- 53- نصر الدين براهيم، تلمسان الذاكرة، منشورات ثالثة، الجزائر، 2007م، ص 10.
- 54- محمد بن عمرو الطمار، تلمسان عبر العصور - دورها في سياسة وحضارة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص 10.
- 55- عيد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص 146.
- 56- المرجع نفسه، ص 146.
- 57- نصر الدين براهيم، المرجع السابق، ص 156.
- 58- أبو عبيد الله البكري، المصدر السابق، ص 748.
- 59- أبو القاسم ابن حوقل، المصدر السابق، ص 53.

- 60- مؤلف مجهول: الاستبصار، المصدر السابق، ص 134.
- 61- الحسن بن محمد الوزان، المصدر السابق، ص 12.
- 62- أبو عبد الله البكري، المصدر السابق، ص 749.
- 63- مؤلف مجهول، الاستبصار، المصدر السابق، ص 135.
- 64- أبو عبيد الله البكري، المصدر السابق، ص 750.
- 65- مؤلف مجهول، الاستبصار، المصدر السابق، ص 135.
- 66- الحسن بن محمد الوزان، المصدر السابق، ص 13-14.
- 67- الرباط، هو الإقامة على جهاد العدو بالحرب ورباط الخيل وإعدادها فيقال: (فلان له رباط من الخيل) أي الحصن أو المكان الذي يرباط فيه الجند، انظر: محمد الأمين بلغيث، الربط بالمغرب الإسلامي ودورها في عصر المرابطين والموحدين، رسالة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1987م، ص 34.
- 68- أبو عبيد الله البكري، المصدر السابق، ص 724.
- 69- مؤلف مجهول، الاستبصار، المصدر السابق، ص 167.
- 70- أبو عبيد الله البكري، المصدر السابق، ص 729.
- 71- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج 5، ص 244.
- 72- مؤلف مجهول، الاستبصار، المصدر السابق، ص 166.
- 73- الحسن بن محمد الوزان، المصدر السابق، ص 60.
- 74- مختار حساني، موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، دار الحكمة، الجزائر، د.ط، ج 3، 2007م، ص 156.
- 75- المرجع نفسه، ص 159.
- 76- أبو عبيد الله البكري، المصدر السابق، ص 735-736.
- 77- ابن الصغير المالكي، أخبار الأئمة الرستميين، تح وتبع: محمد ناصر وإبراهيم بحاز، نسخ هذا الكتاب بالإقامة الجامعية علي منجلي، 4، 2010 م، ص 32.
- 78- أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، المصدر السابق، ص 192.
- 79- أبو القاسم، إبراهيم الاسطخري، المصدر السابق، ص 20.
- 80- أبو القاسم ابن حوقل، المصدر السابق، ص 60.
- 81- محمد بن أحمد المقدسي، المصدر السابق، ص 105.
- 82- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج 2، ص 09.
- 83- مؤلف مجهول، الاستبصار، المصدر السابق، ص 178.
- 84- عماد الدين إسماعيل أبي الفداء، المصدر السابق، ص 124.
- 85- محمد عيسى الحريري، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي (حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس)، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، ط 3، 1987م، ص 98-99.
- 86- أبو عبيد الله البكري، المصدر السابق، ص 740.
- 87- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص 64.
- 88- مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 184.
- 89- أبو عبيد الله البكري، المصدر السابق، ص 743.
- 90- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص 317.
- 91- مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 185.
- 92- عماد الدين إسماعيل أبي الفداء، المصدر السابق، ص 123-124.